

«أدب الرحلة».. كتابة تكتشف الذات والآخر

الخليج · 28-09-2025

الناشر: معهد الشارقة للتراث

الشارقة: رضا السميحيين

يحتل أدب الرحلات مكانة فريدة في التاريخ الثقافي والفكري، باعتباره يشكل رابطاً بين التجربة الفردية والمعرفة الجماعية، وبين العين التي تبصر والقلم الذي يدون، وتجاوز أدب الرحلات كونه سرداً لتفاصيل المدن أو وصفاً للممالك والطرق، ليغدو أفقاً رحباً لصناعة الوعي وتوسيع المدارك، بما يكشفه عن صورة الآخر والتي تعيد في الوقت نفسه صياغة صورة الذات، ومن خلال نصوص الرحالة، تشكلت ذاكرة حضارية مشتركة أسهمت في إثراء العلوم الجغرافية والأنثروبولوجية وعلم الاجتماع، وفي رفد الأدب بروح المغامرة والاكتشاف، في سعي لإعادة اكتشاف الذات والعالم معاً.

في هذا السياق، يطل علينا كتاب «تلخيص الصفحات في أدب الرحلات»، الصادر عن معهد الشارقة للتراث في طبعته الأولى لعام 2025، من تأليف الباحث فهد علي المعمرى، ويقع في 212 صفحة من القطع المتوسط، وجاء بمقدمة كتبها د. عبدالعزيز المسلم رئيس المعهد.

يتوزع الكتاب على ثمانية أقسام رئيسية تتناول تعريف الرحلة وأهميتها، علم الجغرافيا عند العرب، دوافع الرحلة، بدايات الرحلات وتطورها عبر القرون الهجرية، جهود المستشرقين، وببليوغرافيا شاملة لأهم كتب الرحلات، لينتهي بخاتمة جامعة وفهرس موضوعات ومراجع.

*ذاكرة حضارية

يفتح المعمرى كتابه بإشارة عميقة إلى أن مفهوم الرحلة عربياً، حيث إنه لا يقتصر على كونها انتقالاً من مكان إلى آخر، وإنما هي مشروع فكري ومعرفي، يحمل في داخله روحاً من السعي الجاد لاكتشاف المجهول وربط المعرفة بالخبرة الإنسانية المباشرة، فمنذ القرون الأولى، لم يكن العرب يرحلون بدافع الترف أو المجازفة فقط، وإنما حملوا معهم أيضاً فضول البحث والاكتشاف، وحب التعلم، والرغبة في نشر الدين والتعامل مع التجارة والانفتاح على الثقافات الأخرى.

ويذكرنا المعمرى بسورة «قريش»، التي تحدثت عن رحلتي الشتاء والصيف كدليل قرآني وإشاري على أن التنقل والترحال كانا جزءاً أصيلاً من نسيج الحياة العربية قبل الإسلام، سواء لأغراض تجارية واقتصادية أو لحاجات أخرى، ومع تطور الزمن، أخذ هذا الهاجس الجمعي بالترحال يتخذ أبعاداً أوسع، ليتحول إلى ممارسة ذات قيمة أدبية ومعرفية، تسهم في صياغة وعي أمة بأكملها على ضوء التجربة والمعاناة المباشرة.

ويمضي المؤلف ليكشف أن نضج أدب الرحلة بدأ فعلياً في القرن الثالث الهجري، عندما انتقلت الرحلات من مجرد أخبار متناثرة إلى نصوص منظمة تحمل خصائص السرد الأدبي، وتعرض صوراً حية للمدن والأسواق والبحار والجبال والشعوب، وبهذا التحول، تجاوزت الرحلة غرض التوثيق للانتقال الجغرافي، وغدت وثيقة حضارية تمثل صورة للعالم كما رآه الرحالة العرب، وتعكس تصوراتهم وطرائقهم في الفهم والمعاناة، ليتمكن القارئ المعاصر، من خلال هذه النصوص أن يعيد بناء خريطة ذهنية دقيقة للوعي العربي في تلك الحقبة، بما ينقله من تفاصيل عن طبيعة المكان والزمان.

*بحوث متنقلة

ومن أهم ما يبرز في هذا السياق أن الرحلة لم تكن منفصلة عن حركة التأليف والتصنيف في الحضارة الإسلامية، بل صارت أحد منابعها الأساسية، فالعديد من الرحالة كانوا علماء موسوعيين كالمسعودي والبيروني، جمعوا بين شغف السفر وروح البحث العلمي، فوصفوا المدن والأنهار ورصدوا حركة التجارة، ووثقوا الطقوس والعادات وأسسوا لملاحظات في الفلك والمناخ والجيولوجيا.

هؤلاء العلماء سعوا إلى إنتاج معرفة منظمة تفيد الدولة والفقهاء والعلماء والقراء، على حد سواء، وهذا ما جعل كتباً مثل «أحسن التقاسيم» للمقدسي و«المسالك والممالك» للإصطخري وغيرها، تتحول إلى مراجع معتمدة في مجالات الجغرافيا والأنثروبولوجيا ورسم الخرائط، ويخلص المعمرى إلى أن الرحلات كانت بالفعل أشبه بـ«مراكز بحوث متنقلة» تسبق ظهور المؤسسات الأكاديمية الحديثة بقرون، لتجعل من الرحالة العرب رواداً في صناعة المعرفة الكونية التي ألهمت العالم لاحقاً.

يخصص الكتاب مساحة واسعة للحديث عن أغراض الرحلة عند العرب، وهو فصل يضيء على البعد الاجتماعي والثقافي لهذا الأدب، فالرحلة قد تكون دينية كما في الحج وزيارة البقاع المقدسة، أو علمية حيث ارتحل العلماء لطلب الحديث والفقه، أو سياسية ودبلوماسية في إطار وفود الملوك والسلاطين، أو اقتصادية وتجارية عبر القوافل البحرية والبرية، أو حتى سياحية بدافع الفضول وحب المغامرة.

هذا التنوع منح أدب الرحلة ثراءً فريداً، إذ جمع بين الواقعية والتأمل، وبين السرد الشخصي والتوثيق العلمي، وهو ما يجعل قراءته اليوم، فرصة للتعرف إلى عقلية الإنسان العربي وهو يواجه المجهول ويعيد تعريف ذاته أمام الثقافات الأخرى.

*عصر ذهبي

يأخذنا المعمرى في كتابه إلى الجذور البعيدة لفكرة السفر والارتحال في الثقافة الإسلامية والعربية، فيذكرنا برحلة الإيلاف التي كانت قريش تقوم بها إلى الشام واليمن قبل الإسلام، وما شكلته من إطار اقتصادي وتجاري أسس لعلاقات مع شعوب وأقاليم أخرى، ثم ينتقل ليعرض الرحلات التي قام بها الصحابة والتابعون لنشر الدعوة الإسلامية وجمع الحديث الشريف، حيث اكتسبت تلك الأسفار طابعاً دينياً وروحياً عميقاً.

ومع القرن الثالث الهجري، تتحول الرحلة من مجرد نشاط عملي أو ديني إلى مجال أدبي قائم بذاته، تتداخل فيه السردية الأدبية مع الرؤية المعرفية، ويشير الكاتب إلى أن هذا التطور بلغ ذروته في القرون الرابع والخامس والسادس الهجرية، ليجعل من القرن الرابع العصر الذهبي لأدب الرحلة، حيث ظهرت مؤلفات كبار الرحالة والجغرافيين الذين تركوا لنا نصوصاً غنية ومعقدة لا تزال حتى اليوم مرجعاً للباحثين والمؤرخين لفهم طبيعة المجتمعات، وتطور طرق التجارة، والخرائط الفكرية والجغرافية للعالم القديم.

ولا تكتمل قراءة أي دراسة عن أدب الرحلة من دون التوقف عند أعلام هذا الفن الذين ارتسمت بأقلامهم خرائط للمعرفة والذاكرة الإنسانية. يقدم المعمرى عرضاً شيقاً لهؤلاء، فيذكر أحمد بن فضلان ورحلته الشهيرة إلى بلاد الصقالية حيث قدم وصفاً اجتماعياً وأنثروبولوجياً نادراً، والمهلبى الذي رسم بدقة صورة سواحل شرق إفريقيا وموانئها، ثم المسعودي الذي مزج بين التاريخ والجغرافيا في «مروج الذهب»، والبيروني الذي برع في وصف الهند وصفاً علمياً قلما نجد له مثيلاً، ويأتي ابن بطوطة ليشكل أيقونة الرحالة المسلمين بما سجله في «تحفة النظار» من مشاهدات غطت بلدان العالم على مدى ثلاثين عاماً.

هذه الشخصيات تكشف عن تحول الرحالة إلى شهود حضاريين يمتلكون عيناً فاحصة وقلباً مفتوحاً، نقلوا صورة الآخر وشاركوا في صياغة معرفة كونية تتجاوز الحدود، لتسبق بفكرها وعمقها ما اصطلاح عليه اليوم بـ«العولمة» بقرون طويلة.

يلفت الكتاب إلى أن أدب الرحلة لم ينقرض، بل تبدل شكله، ففي القرن العشرين تحول من الوصف الجغرافي إلى تأملات ذاتية ونقد ثقافي، فبات الكاتب يسجل انطباعاته عن المدن والناس ويقارن بين الشرق والغرب.

يخصص المعمري فصلاً لمجهود المستشرقين الذين حققوا نصوص الرحلات ونقلوها إلى لغاتهم، ويقر المؤلف أن عملهم ساهم في تعريف العالم الغربي بهذا التراث، وإن كان لا يخلو أحياناً من منظور استشراقي يخضع النص العربي لمعايير النقد الغربي، لكن الفضل في إحياء كثير من المخطوطات ونشرها يعود إلى هؤلاء الباحثين، ما أتاح للدارسين العرب فرصة إعادة قراءتها.

اقتباسات

*الرحلة قد ساعدت على اكتشافات كثيرة منذ بدايات الإنسان على هذه الأرض.

* إن البدايات الفعلية للرحلة عند العرب والمسلمين بدأت في القرن الثالث الهجري، ونضجت في القرن الرابع الهجري.

* أسهم المستشرقون في نقل المعرفة إلى أوروبا عبر

ترجمة الكتب العربية إلى لغاتهم.

* إن أدب الرحلة في تراثنا العربي لا يزال ميداناً

خصباً للبحث والدراسة.

—